

أحياء فصيح اللغة

تشند المنافسة في هذه الأيام بين ما يسمونه الأدب القديم والأدب الحديث ،
ويكثر النزاع بين الفئتين من أنصار هذين الأدبين .

ومن صور هذا النزاع مناقضة أحد الفريقين للآخر في جواز استعمال الفاظ
من فصيح اللغة العربية . لم يألفها كتابنا ، ولا محرروا الصحف من أبنائنا ،
ظانين أنها من الغريب الحوشي الذي يجب اطراحه . مع انها لم تصل في
الغرابة إلى حد التشاؤم بها ، والزراية عليها .

ولم يقف التشاؤم بهذه الألفاظ الفصيحة عند حد عامة الكتاب ، بل تخطاه
إلى خاصتهم . حتى قال أحد هؤلاء : « إن كلمات المعاجم القديمة أصبحت جزءاً
من تاريخ اللغة . فيجب أن يعنى بها حين البحث في هذا التاريخ لا حين النظر
في اختيار الفصيح وميزه من غير الفصيح . وان للكتاب والصحفيين الفاظاً
وتعابير هي العمدة في الفصاحة ، وهي التي يجب أن تهتم بها مجامعنا اللغوية » اه
ونحن نحمد الله على أن كان هذا التشاؤم بفصيح اللغة مما لا يوافق عليه
معظم ادبائنا المفكرين ، وإلافان تحكيم هؤلاء الناس في نقد الكلمات
واختيار الألفاظ : هذا اللفظ يوافق ذوقنا فاقبلوه . وهذا لا يوافق ذوقنا انبذوه .
يؤدي حتماً إلى موت نصف اللغة أو ثلاثة أرباعها ، وفي ذلك تفريط في مصدر
عظيم من مصادر تنمية اللغة العربية ، وإخراجها من الدائرة الضيقة التي تعيش فيها .
والرأي المعتدل في اختيار الفاظ جديدة للاستعمال ، أن يرجح منها ما توفرت
فيه الشروط التي ذكرها علماء البلاغة لفصاحة الكلمة ، أعني عدم تنافر حروفها ،
وان لا تكون حوشية ولا مبندلة . ولا من كلام السفلة . وازيد على ذلك ان

يكون معناها مما يدخل في لغة حياتنا الجديدة، وفي كل ماله علاقة بمحاضراتنا الحديثة .
 مثال ذلك : أن العرب كانوا يحشدون الجنود للقتال ويضطرون أحياناً ان
 يكون جيشهم مؤلفاً من عدة قبائل ، تحالف وتلقى العدو ، ويسمون هذا الجيش
 « البريم » وقد استعاروا لها هذا الاسم من لغتهم العربية نفسها : فان البريم هو الخيطُ
 التخين المفتول من عدة خيوط مختلفة الالوان . ويقابل الجيش (البريم) الجيش
 (الجَمرة) : وهو الذي تكون جنوده من قبيلة واحدة ، لا حلفاء معها .
 ولا دخيل فيها . فإن المحاربين اذا كانوا من دم واحد ، توقدت حميتهم فكانوا
 جَمرة ملتزمة الايمان بعدالة قضيتهم وحماية وطنهم . وبعض حكومات هذا
 الزمان تسمي جيشها المؤلف من اجناس مختلفة (الجيش المختلط) فهل يحسن
 ان نشاءم بكلمة (البريم) وبأمثالها من الكلمات التي توفرت فيها شروط الفصاحة
 ونقول : هي من غريب اللغة فالواجب اضراحها ؟

اذا أهملنا الكلمات الفصحى ورحبنا بالكلمات الاجنبية ، وادخلناها مقاصير لغتنا
 من دون قيد ولا شرط يوشك ان لا يمضي علينا زمن حتى تحتل الموازنة
 وتطغى العجمة ونبقى في معزل عن لغة ثقافتنا القديمة . وفي هذا الصنيع إخلال
 بالعروبة ، وإضاعة للقومية .

واللغات تنمو بعدة وسائل ، وأهمها أمران . إحياء الفاظ من اللغة القومية
 القديمة . والثاني اقتباس كلمات من اللغات الأجنبية الحديثة . ولكل من الطرفين
 شروط وتحفظات ، ليس المقام مساعداً على بسطها .

فكروا في فريق منا يتشاءم بغريب اللغة . أي غير المستعمل من كلماتها . فيو
 لا يريد ان يستمد من لغة المعاجم حياةً للغة نهضتنا الحديثة . وهذا الفريق
 هم معظم المثقفين ثقافة عصرية من أبنائنا - وفريق آخر يتشاءم بالكلمات
 الأجنبية . فيحرم استعمالها . وهذا الفريق هو المثقف ثقافة اسلامية قديمة -
 ثم أردنا مثلاً ان نرضي الفريقين فأهملنا الكلمات اللغوية القديمة والكلمات

الأجنبية الحديثة . فماذا تكون النتيجة سوى أن تصاب لغتنا بالانيميا ،
وقلة المادة ، والاقتصار على بقية من كلمات اللغة محدودة المقدار . تسربت إلينا
من خلال رطانة الأعاجم الذين عاشوا بيننا أحقاباً طويلاً ، بينا حياة الحضارة
الجديدة . تستدعي الوفاً والوفاءً من الألفاظ والتعابير للدلالة على المسميات
المختلفة ، والمصطلحات الحديثة .

هذه اللغة الانكليزية ، كان معجمها من عهد غير بعيد يتضمن عشرين الف
كلمة ، أما اليوم فتبلغ كلمات معجمها نيفاً واربعائة الف كلمة . كما حققه العلامة
(بيرون سميث) أحد اساتذة جامعة بيروت الأميركية ، في مقال له نشره في
مجلة الجامعة . وقد تتبع هذا الأستاذ الألفاظ العربية ، التي دخلت في اللغة
الانجليزية ، فوجدها تبلغ اربعائة وخمسين كلمة . وقال غيره بل هي تبلغ اكثر
من ذلك . وعزا (سميث) السبب في نمو لغة قومه الى المصدرين اللذين
ذكرناهما : إحياء الكلمات الانجليزية القديمة ، واقتباس كلمات من اللغات الاخرى .
وبفضل هذين المصدرين نمت اللغة الانجليزية واتسعت دائرة استعمالها اتساعاً يكاد
يُحيط بكرة الأرض . والى هذين المصدرين نفسيهما ، أشار زميلنا المستشرق
الانجليزي (المستر جب) . . فقال في احدي خطبه : (ويل للغة مصادرها
معجماتها دون الشعور الحي للناطقين بها . وويل للغة ينطق ويكتب الناطقون
بها طوع أهوائهم ، ويضربون بمعاجمها عرض الحائط) ومالي حاجة في حديثي
هذا ان أنصر الألفاظ المعربة من لغة أجنبية ، فقد نصرتها بقوة في كتابي
(الاشتقاق والتعريب) ، عدا أن الثقافة الأوروبية والعلوم العصرية التي ملكت
عقول أبنائنا وأسنتهم قائمة بوظيفة الدعاية الملحة إلى هذه الألفاظ الأعجمية واستعمالها
بنطاق واسع فهي ليست في حاجة الى نصره ولا دعاية ولا شأن لنا بها الآن
وانما الشأن كل الشأن في الفاظ لغتنا القاموسية الفصيحة : فانها بقيت من
دون دعاية ولا نصير وقد لزمنا مكانها واجمةً سادمةً ، حتى كاد العنكبوت

يُحَيِّمُ عليها ، وحتى كادت تمتد يد البلي إليها . وحتى رحمها شاعر النيل حافظ
ابراهيم وندبها فقال علي لسانها :

أيا ويحكم أبني وتبلى محاسني وفيكم اذا عزّ الدواء أساتي
فلا تكيلوني للزمان فأني أخاف عليكم أن تحين وفاتي
انا الحجر في أحشائه الدرّ كامن فهل سألوا الغواص عن صدّ فاتي

وليس في مقدوري ان أتجاهل الصعوبة التي كانت وما زالت تعترضني وتعترض
غيري في إحياء الفصيح من غريب اللغة ، وتسهيل أمره ، وحمل فئة الكتاب
— ولا سيما الصحفيين — على استعماله فشدّ ماقت استعطف جمهرة الكتاب
على فصيح اللغة ، وأعرضها عليهم عرضاً ، وهم يرجون مني أن لا أفرض عليهم
« لغة المعاجم » فرضاً ، وقد قضينا في ذلك الجدل والحوار زمناً كاد يوقعنا في
اليأس من إحياء فصيح لغتنا المحبوبة . ثم بدا لي في آخر الأمر أن أسلك
في نشر فصيح اللغة ، وتحبيب الجمهور بغريبها « الطريقة المتنامية » اعني طريقة
الحريري والبديع في مقامتيها : فأعمد الى مُلحّ من أقوال العرب ، يكون قد رواها
رواتها بتعابير من الغريب الفصيح وأدخل هذه المُلحّ المستظرفة في المحاضرات التي
تلقى على الجمهور من وقت الى آخر ، فتعلق الفاظها الفصيحة بأذهانهم ، من حيث
لا يتوقعون . وقد نجحت هذه الطريقة الى حدٍّ ما . وقد تنجح الى أقصى حدّ ،
إذا ثابرتُ أنا وغيري عليها .

وهاكم مثلاً واحداً مما احسب أن الإصغاء اليه مفيد في نشر فصيح اللغة .
وصف رجل رجلاً فقال : « هو هلباجة 'ضغبوس' » . . . — (الضغبوس) :
الضعيف ، ولكن مامعنى « الهلباجة » ؟ لم يرد في كلمات اللغة كلمة تشبه
الهرباجة في استجماع صفات التّبجح فيها : فتدري العلماء يفسرون لك معناها بما يدلّ
على أقبح أوصاف الرجال . ولا تراهم مكتفين بما قالوا ، بل يعودون فيسردون
في تفسيرها المعنى بعد المعنى ، والوصف تلو الوصف . ومع ذلك يبقون في

شكّر من وقوعهم على معناها المطابقي . فهم يقولون ما نصه (الهلباجة) هو الأحمق الذي ما فوقه أشد حمقاً منه . (الهلباجة) هو الوحم . . . المائق . . . الثقيل . . . القليل النفع . . . ومعنى (الوحم) الكثيف الطبع الذي لا رقة فيه ومعنى (المائق) المتناهي في الحمق والغباوة .

ويخالفهم في تفسير (الهلباجة) غيرهم فيقول : (الهلباجة) هو التوؤم الكسلان . . الجاني . . العطل . . ومعنى (العطل) بضمتين الخالي من المال والأدب . وكل هذه الأوصاف الخبيثة ، لم يشف قلب سراح اللغة ، في تفسير معنى الهلباجة حتى قام الراوية الكبيرة (خلف الأحمر) ، ينقّب عن معاني لها غير ما ذكره زملاؤه . فلقي اعرابياً مشهوراً بالنطق بغريب اللغة وهو (ابن القبعثري) فقال له : هات يا فلان ، فسر لي معنى (الهلباجة) فقال : هو الأحمق . . الضخم . . القدم . . الأكل الشروب . . (ومعنى القدم العي عن الكلام القليل الفهم والنظنة) ثم تابع (ابن القبعثري) كلامه في تعديد معاني الهلباجة فقال : هو الذي كذا هو الذي كذا . . وذكر من قبيح النعوت والأوصاف ما شاء وشاءت مقدرته .

قال الراوية خلف : ثم جعل هذا الاعرابي كلما لقيني يتذكر سؤالي له عن معنى الهلباجة ، ويزيدني معنىً جديداً من معانيها ، وبعد مدة صادفته فقال لي : أريد ان أخرج من العهدة في تفسير هذه الكلمة الملعونة : (الهلباجة) هو الجامع لكل شر .

اقول : وهل انتهى الأمر عند هذا الحد ؟ كلا : فان خلفاً الأحمر عاد فلقي (ابن القبعثري) وفتح حديث (الهلباجة) فتردد في صدره من خبث معناها ما لم يستطيع إدماجه في كلمة واحدة تكون كافية في التحديد . فعاد الى التعديد فقال : (الهلباجة) هو الضعيف . العاجز . الأخرق . . الجلف . .

الكسلان . . . الساقط . . . الذي لا معنى له . . . ولا غناه عنده . . .
ولا كفاية معه . . . ولا عمل لديه . . .

ثم راجع (ابن القبعثري) نفسه عند قوله (لا عمَلٌ لديه) : فتذكر ان الهلباجة
أحياناً يمكن أن يعمل فقال : وبلى ! سيعمل وعمله ضعيف . وضرره أشد
من عمله . يعني ان أهله اذا أكرهوه على العمل أتى يعمل ، ولكن يكون
عمله حقيراً لا يوازي ثمن الطعام الذي أكله .

ويظهر ان راويتنا (خلفاً الأحمر) بقي ينظر في وجه القبعثري نظر المستزيد
فقال له القبعثري قولاً فيه نصح . وفيه تدريب على معاشره الهلباجة :
« لا تحاضر به مجلساً للناس » (أي لا تصحبه معك الى مجالسهم) وسكت
ابن القبعثري . وبقي خلف ينظر اليه كأنه يقول : إني أحياناً أضطر الى شهود
مجالس الاخوان به قال : « فليحضر ولكن لا يتكلم » وأراد الانصراف ، فأخذ
خلف بتلاييه قائلاً : انا لم اقع بما قلت . وهبني فتعت فاني لا أكاد أحفظ
جميع ما عدت من معاني الهلباجة . اما لديك كلمة تُعني عن كلمات ؟ قال نعم :
احمل على « الهلباجة » من معاني السوء ما شئت . . .

يقول القاري : حقاً إن كلمة (الهلباجة) على ما يظهر هي أجمع كلمات اللغة
لقبيح الأوصاف . فهي بؤرة عذاب وقاموس سباب . . . ولكن ألا يوجد
في اللغة العربية كلمة على الضد من كلمة (الهلباجة) في استجماع صفات الخير . . .
وأجيب على ذلك بأنني لا أذكر كلمة خاصة في استجماع كل معاني المدح سوى
كلمة (كريم) فان الكريم هو الرجل الجامع لكل صفات الكمال .

المعربي

www.alukah.net